في الألفية القادمة.

17. تقوية العلم والرياضيات وتقنية الحواسيب في عمر مبكر، إن الفتوحات في بحوث العقل قد قادت الى فهم السلوك الإنساني والآلية الذهنية وعملية التعلم. والعقل الإنساني فيه قدرة كافية واسعة غير مستخدمة تصل الى 90% واذا ما اخذنا بعين الاعتبار افتراض كيمياء الأحياء العقلية الحالية بخصوص ان الدماغ يحتوي على عشرة ملايين عصيب، فإن الدماغ الإنساني للطفل يمكن ان يطور قدراته الابداعية الى حدود لا يمكن تصورها. فكل اللغات ينبغي ان يتم تعليمها في مرحلة ما قبل الدراسة وفي المراحل الابتدائية لبناء اماكن تخزين معلومات دماغية صغيرة الحجم *Microchips* كـ «مكتسبات» وليس كـ «تعلم» فهناك ثلاث الى اربع لغات اجنبية يمكن ان «تكتسب» من قبل الطفل في طفولته المبكرة اضافة الى لغته الأم. وهذا مما يساعد على زيادة مفردات التلميذ وإشراع ذاكرته باتجاه آفاق جديدة. والمفهوم القديم عن «حشو عقل الطفل المسكين» غير صحيح والتحفيز باتجاه العلم والرياضيات يجب ان يحدث في عمر مبكر. إن (حقن) التكنولوجيا بهدف لجعل النموذج الثقافي اكثر كفاءة وانصافا، وقبولا من حيث الكلفة وكذلك لتطوير اعادة بناء صيغ البحث وحل المشاكل. فعولمة التكنولوجيا هو ان تتواصل، وتحسب، وتتخذ قرارات ذكية، وتبتكر، فالحاسبات من حيث كونها برمجيات واجهزة *Hardware* يجب ان ترافق المتعلمين منذ طفولتهم، وعبر مجمل حياتهم. تلك هي كيفية بناء التكنولوجيا وإدارة المعلومات بوصفهما عاملا متلازما مع العقل الفردي. فتكنولوجيا المعلومات هي القوة التي تخلق ثورة في مجال الأعمال *Business*، وتسهل عمل الحكومات وتعصرنه، وتحدث ثورة في مجال العمليات *Operations*. علينا ان نعد مدارسنا لتتحول من مدارس ذات تكنولوجيا متدنية الى مدارس ذات تكنولوجيا عالية. ومن الواضح ان هذا يتطلب رؤية جديدة من أجل إعادة تدريب الأساتذة كي يكون بإمكانهم تطوير ثقافة الطلاب.

18. تحويل التعليم الى مجتمع مدني قائم على المعرفة، ان برمجيات وسائل الإعلام المتعددة *Multimedia* غدت اليوم ابداعية، ومن الممكن للمستخدمين لها ان يستكشفوا وبعمق العديد من المواضيع والإمكانات التي تقدمها الحواسيب بوصفها ادوات تساعد الطلاب على التعلم وتمكنهم من بناء المعرفة والإدراك وتشكيل ثورة حقيقية في عملية التعليم وخلق فرصة لتغيير المدارس. هذا التغيير يتجه بعيدا في العمق اكثر من وضع حاسوب في مكتب كأداة جديدة. وعليه، فإن الحواسيب يجب أن تدخل وتدرج في بيئة التعلم لتسمح بإدراك «بناء المعرفة» وتطوير القدرات الضرورية التي تؤدي عملا معينا في مجتمع المعرفة.

19. بناء الرأسمال الإنساني من أجل عصر المعلومات: المدارس والجامعات يجب ان تتغير لتواجه تحديات اقتصاد مبني على المعرفة في عصر المعلومات. إذ أن ثمة حاجة للمهارات الجديدة من أجل انبثاق مكان عمل يتناسب مع عصر المعلومات. واذا ما أراد الطلاب أن يكونوا مستخدمين أذكياء للتكنولوجيا والمعلومات، فيجب عليهم أن يتعلموا كيف يكونوا مبدعين ومبتكرين ويجب ان ينخرطوا في حل المشاكل وفي البحوث، ويجب أن يكونوا قادرين على معالجة حالات درسية، وفهم كيفية تحليل جداول المعلومات واستخلاص نتائج ذكية منها.

20. إن التعليم يواجه تحديات هائلة في إطار تحضير الأفراد من اجل مجتمع عصر المعلومات:

- كيف تدير كتلة ضخمة من المعلومات.
- كيف تحضر رأسمالا انسانيا اكثر كفاءة، من اجل سوق عقول كثيف.
- كيف تحضر مصادر بشرية مرنة لتواجه عدم اليقين في الاقتصاد العولمي.

* كيف تبتكر لتلحق بالاقتصاد المنافس، المحفز بالمعرفة، وذي السرعة العالية في مكان العمل.

21. إن التوظيف او الاستثمار في التعليم العالي والبحوث القومية يظهر بازدياد بصفته مكونا من المكونات الأساسية في النمو الاقتصادي وفي استراتيجيات خفض الانفاق، المبنية على تراكم تكنولوجي ناجح. فالمساهمة الاقتصادية للتعليم العالي والبحوث هي عملية مباشرة وغير مباشرة. أولا: هناك تأثير مباشر حيثما تؤدي البحوث المنجزة في الجامعة الى الابتكارات الصناعية. وثانيا: ثمة تأثيرات غير مباشرة، ليست باقل اهمية، تأتي من خلال تدريب المدراء والعلماء والمهندسين المؤهلين الذي يشاركون في تطوير وتكييف ونشر الابتكارات في القطاعات المنتجة. وهنا ينصح أن تكون الاستثمارات في البلدان النامية في مجال التعليم (كل أنواع التعليم) بمقدار 6% من مجمل الانتاج المحلي من قبل القطاعين العام والخاص. ويجب ان يكون الاستثمار في البحوث العلمية بمقدار 1% من مجمل الانتاج المحلي في كلا القطاعين، فإحلال العلم مهم ليتكاثر ويتحول البحث والتنمية في الجامعات الى تطبيقات وابتكارات تقنية.

22. أخيرا، حرية التعبير وحقوق الإنسان وبناء الديمقراطية: فالمؤسسات الديمقراطية البعيدة عن الروتين والبيروقراطية نحتاج لها اليوم أكثر من أي وقت مضى وذلك لدورها في تقدم البيئة المقنعة والمغرية ولإطلاق الحد الأعلى من طاقات الأفراد ليكونوا خلاقين ومبدعين. فالجنوب بحاجة ماسة الى المبادرين للقيام بالمشاريع والملتزمين بها *Entrepreneurs*.

المثقف العربي والتراث

- المنهج والرؤية -

د. مرشد الزبيدي
العراق

المثقف العربي، اليوم، إذ يطلّ من شرفة واسعة على بدايات القرن الحادي والعشرين الميلادي، ويعيش في دوّامةٍ صخّابةٍ، من الأفكار والاتجاهات والمناهج التي تفرض وجودها وطرائق بحثها عليه، وتفرض عليه واقعاً فكرياً لا خيار له فيه إلا مجابهته، أو التأقلم معه. ان هذه الدوامة لم تحدث بفعلِ رياح خارجية فقط، وإنما اسهمت فيها تلك الرياح الخارجية فضلاً عن رياح اخرى تهبّ من الداخل، وعلى هذا فالنظر إلى قضايا مثل: العولمة وصدام الحضارات والشرق اوسطية والمتوسطية لا يكون بمعزلٍ عن النظر إلى قضايا اخرى تنبع من معاناة المثقف العربي الذاتية وما يعتمل في داخله، إزاء المشكلات المتعلقة بجغرافية المكان العربي وتاريخه وظروفه السياسية والأقتصادية والاجتماعية.

إن تلك الدوامة التي يتارجح المثقف العربي في داخلها، ليست من نوع الدوّامات الآنية ذات النتائج السريعة التي تمكن معالجة آثارها بعد حصولها مباشرةً، فهي لا تقتلع شجرةً أو تهدم بيتاً أو تحمل انساناً إلى مكان مجهول، فقط، بل إنها دوامة رهيبة تتعلّق نتائجها، ليس بآثارها المادية، حسب، إنما بآثارها الفكريةِ القادرةِ على زحزحة البنى الفوقية للمجتمعات، كما ان نتائج تلك الدوّامة لا تطال حاضر هذا الانسان، وحده، بل تتجاوز ذلك، فتحدد مسارات النظر إلى الماضي، واعادةِ تركيبه من جديد، وعلى وفق الرؤى التي تحكم اتجاهات كل قضية من تلك القضايا، كما انها تسهم في صنع المستقبل، لأنّ كل واحد من عناصر تلك الدوامة، له آليات عمله الطامحة إلى تحديد مسارات المستقبل.

والمثقف العربي، في حيرة من امره، فلو أنها كانت دوّامات متعددة، مرّت عليه الواحدة تلو الأخرى، لهان عليه الأمر، ولفكّر بمجابهة الواحدة منها قبل ان يجابه الأخرى، ولكنّها دوّامة واحدة مركبة، بل انها شديدة التركيب، الزمان واحد هو الزمان العربي الحاضر، والاماكن متعددة متباعدة هي الاجزاء المبعثرة من هذا الوطن الكبير، وبما ان تلك الدوامة قد هجمت عليه في زمان واحد، فما عليه إلا ان يتجمع، ليوحّد الخطوات او ليكيفها للمهاجمة أو التأقلم، ولكن كيف يمكن ذلك، والحال ان الأماكن متباعدة والرؤى متباينة، والمعابير غير قادرة على ان تثبت أين الصحيح وأين المخطوء؟

تلك هي المشكلة الفكرية الأساسية التي تجابه المجتمعات العربية كلّها وليس المثقف العربي وحده، وعلى هذا لن ننظر إلى قضية (المثقف العربي والتراث) بمعزل عن تلك الإشكالية الكبيرة التي يعيش فيها المثقف العربي، مشكلة الدوّامة المعقدة ذات العناصر المتشابكة في علاقاتها، ففي هذا التعقيد والتشابك، يستطيع المثقف العربي، أو لا يستطيع تحقيق هويته الخاصة.

المعرفة والايديولوجيا

يذهب الكثيرون من الباحثين إلى ضرورة الفرز الدقيق بين المعرفة والايديولوجيا في تناول التراث العربي، مسوغين ذلك بأن الدقة العلمية والموضوعية تقتضيان أن نتعامل مع الوقائع والنصوص تعاملاً مجرداً، نعرضها بحيادية كما لو

انها نصوص لا تتعلّق بذواتنا. ان اقصاء الذات حين نبحث في اية قضية، هدف علمي سامٍ، ولكن هل نتمكن من تحقيق هذا الهدف حقيقةً؟ هل يستطيع الباحث، عندما يتناول امراً يتعلّق بتاريخه او مكوّناته الثقافية، ان يبتعد عن مشاعره الحقيقية إزاء ذلك الأمر او تلك القضية؟

يقول محمد عابد الجابري: «كل منهج يصدر عن رؤية ولا بدّ، إما صراحةً وإما ضمناً، والوعي بابعاد الرؤية شرط ضروري لاستعمال المنهج استعمالاً سليماً مثمراً، الرؤية تؤطر المنهج، تحدد له افقه وابعاده، والمنهج يغني الرؤية ويصححه[1].

الرؤية هنا، فيها جانب شخصاني، فالذات الفردية هي التي تحدد هذه الرؤية برغباتها وميولها وتكوينها الآيديولوجي، اما المنهج فخطوات منظمة، ولا بد من أن تكون تلك الخطوات خطوات صماء حيادية لا روح فيها، ان ما يمنح هذه الخطوات الصماءَ روحها هو الآيديولوجيا، ان الدراسات الاستشراقية، في الأعم الأغلب، دراسات منهجية، لا غبار على موضوعية اصحابها في خطواتهم المنهجية. ولكن هل نستطيع انكار الرؤى الايديولوجية التي تقف خلف تلك الخطى المنهجية الصماء؟

هل نستطيع اغماض عيوننا عن الهدف المحدد سلفاً لتلك القراءات الاستشراقية في مسعاها إلى الكشف عن مستويات التلاقح بين الثقافات القديمة، وكون الثقافة العربية ليست اكثر من مرحلة وسطى بين الثقافات، وليست إلا تنويعاً على ثقافات الهنود والفُرس واليونان وغيرهم.

ان الفرز بين ما هو معرفي وما هو آيديولوجي فرز مطلوب، ولكن من يستطيع منا ممارسته؟ ان الكثير من الدراسات (العلمية) (الموضوعية) التي تفيد من الخطوات المنهجية العلمية تقف وراءها (رؤى) محددة، تمنع المادة الصماء من ان تبقى جامدة، ولذلك تقوم تلك الرؤى الايديولوجية، التي غالباً ما تكون (ضمنية) بتحريك جمود المادة العلمية، وسيكون في مقدورنا التوقف عند انموذجين من الدراسات العربية التي تدعو إلى الفصل بين ما هو ايديولوجي وما هو معرفي، او تتبنى هذا الفصل، لنتبين حقيقة هذه الدعوة او هذا التبني.

الوصف والتأويل

سننطلق هنا من جزئيتين تتعلقان بموضوع جوهري هو: كيف ننظر إلى التراث؟ هاتان الجزئيتان مستمدتان من ابحاث جادة قدّمها باحثان عربيان مرموقان هما: ادونيس وكمال أو ديب.

* يقول ادونيس وهو يتحدث عن واحدة من خطواته المنهجية في كتابه: (الثابت والمتحول) بانه اصرّ على تجنب الفرضيات القبلية، وانطلق من الوقائع والأفكار كما هي، وذلك لحرصه على تبني منهجية تعكس اقصى ما يمكن من الدقة والأمانة والموضوعية، وانه جعل النصوص هي التي تتكلم وحصر دوره، عامداً، في عرض تلك النصوص وتوجيهها واستنطاقها[2].

والحقيقة ان ادونيس كان امينا لخطواته المنهجية التي حددها في المقدمة، وافاض في تقديم النصوص التي استدعاها منهجه الوصفي، وقدّم جهداً ريادياً كبيراً في دراسة مظاهر الاتباع والابداع عند العرب مفيداً من امكانات استقراء تلك النصوص الكثيرة التي اوردها في كتابه.

ولكنّه لم يتحدث عن رؤيته التي ستمنح الروح لتلك الخطوات المنهجية اي انه لم يتحدث عن ايديولوجيته.

هذه الايديولوجية المغيّبة الا يمكن لنا ان نستشفها من كتابه ومن مجمل تنظيراته المتعلّقة بالنظر إلى التراث العربي؟

يمكن كشف هذه الرؤية المغيبة من تلك المقدمة نفسها، ومن مجمل النصوص التي جمعها في (الثابت والمتحول) ومن كتاباته السابقة لهذا الكتاب ايضاً.

في مقدمة (الثابت والمتحول) يشير ادونيس وهو يتحدث

عن الحركة الشعرية في القرون الثلاثة الأخيرة بقوله: «ان هذه الحركة كانت، في معظمها، استعادة للماضي، وان القوى التي حاولت ان تبدع شيئاً آخر غير ما عرفه الماضي قبل عنها انها غريبة على التراث العربي، وعن البنية الأساسية للذهنية العربية، وانها تفسد الأصول العربية، وهو كما نعرف، القول نفسه الذي اثير حول شعر ابي تمام، وهو كما نعرف ايضاً، النقد نفسه الذي يوجّه إلى الحركة الشعرية العربية الحديثة، وكان لموقعي في هذه الحركة، سواء من حيث كتابة الشعر، أو التنظير لهذه الكتابة، تأثير مباشر يدفعني إلى الكشف عن سر هذا العداء الذي يكنه العربي، بعامة، لكل ابداع، كأنه مفطور عليه»[3].

تشي هذه المقدمة نفسها برؤية محددة يؤمن بها ادونيس، تمتاز هذه الرؤية بان كاتبها يؤمن بوجود قوى تعطّل الابداع في المجتمع العربي قديماً وحديثاً وان صاحبها يؤمن من خلال التجربة ان الانسان العربي مجبول على العداء للابداع، وان ذات الكاتب معنية بكشف هذه القوى وكشف سرّ هذا العداء.

وقبل ذلك بكثير، عندما كتب ادونيس مقدمته للكتاب الأول من (ديوان الشعر العربي) اعلن انه يقف ضد: «الذين يتمسكون بالتراث حرفاً واعادة واجتراراً»[4].

إن كون ادونيس من دعاة (التحول)، وقد وردت هذه المفردة في مقدمة (ديوان الشعر العربي) قبل ورودها في كتاب: (الثابت والتحول)، ليس مثلبة في حق الرجل، ولكننا اخترناها لأنها تعبّر عن مسار ذاتي يؤمن به، وان هذه الذاتية، لا بد من ان تاخذ شيئاً من (موضوعية) الخطوات المنهجية التي سار عليها، فإذا اضفنا إلى ذلك، كون النتائج التي توصل إليها ادونيس في الثابت والمتحول نتائج تنبني على تحليل العلاقة بين الثبوت والتحول، وانه استخلص ان الرؤية الدينية هي سبب تغلب المنحى الثبوتي عند العرب وضمور المنحى التحولي، تصورنا كم كانت الرؤية الايديولوجية لدى ادونيس قادرة على حرف الخطوات المنهجية وجعلها تصبّ في خدمة هذا الهدف الايديولوجي المحدد سلفاً.

* هذا البحث عن نزوع ديني في تحليل الصراع بين القديم والجديد نجده يتكرر عند باحث مرموق آخر هو: كمال أبو ديب.

يستخدم كمال أبو ديب في تحليل اربع قصائد، واحدة منها لأبي الهندي، وثلاث منها لأبي نواس اجراءات منهجية موضوعية تقوم على تحليل الصور الشعرية بناء على تقابلاتها الضدية، كما يقوم بتحليل مضامينها على اساس منهجي علمي، ويحللها احياناً بمستويات ايقاعية تكشف عن تجاوب هذا التحليل مع تحليل مضامينها.

ولكن هذه الاجراءات المنهجية، تخفي احياناً (رؤية ايديولوجية) محددة سلفاً، لا يكشف عنها كاتبها ولا يصرّح بها، ولكنها تكشف عن نفسها من خلال اختيار النماذج، ومن خلال التعمد في اختيار الثنائيات الضدية وتجلياتها، فعندما يدرس ابو ديب ثنائية الأطلال والخمرة لدى ابي نواس، ويتخذ من وصف الصور الشعرية وتضاداتها مع الصور المقابلة لها يتوصل إلى ان: رمز الأطلال يصبح تكثيفاً وتجميعاً لرموز اساسية في التراث الديني أولاً ثم الفكري واللغوي ثم التاريخي»[5]، ويضيف متحدثاً عن طرف الثنائية الثاني، الخمرة «الذي يتعقد بدوره ليصبح مرتبطاً بكون سماوي ودنيوي وثني صنمي او كهنوتي خارج على التراث الديني الإسلامي»[6].

وفي تحليله هذه القصيدة ايضاً يتوصل أبو ديب إلى ان الطرف الأول من الثنائية يمتاز بطغيان خط العفاء عليه، إذ يرشح العفاء: «من الفعل الأول في الحركة الأولى للقصيدة، عفا، ثم يعود إلى التأكد بحدة قاطعة في موضع يؤطّر كل الموجودات التي كانت لها قداسة. إذ يتكرر في بداية الشطر الثاني. وبين طرفي العفاء المطلق هذا تقبع الكونات

الجوهرية للحضارة العربية باكملها: بدءاً بالصلى، بتجسيده للتراث الديني والروح الجماعية وحس التعبّد والخشوع، مروراً بالصحراء التي انبعث منها التراث العربي (الكتب) ثم عبوراً إلى المربدين اللذين يحسبان جوهر التراث اللغوي والشعري كما تنامى في العصر الأموي والعباسي الأول في البصرة حيث كان المربد ملتقى الشعراء وعلماء اللغة والتراث، ويتأكد عفاء التراث الديني بصرامة وحدة في العودة إلى ذكر عفاء المسجد الجامع»[7].

كما انه يخلص إلى الحكم على شعر ابي الهندي بقوله: «إن هذا الشعر يجسد تجربة فذة» في انغماسه المطلق في رؤيا الخمرة واغراقه في الرفض المطلق للتراث الاخلاقي والديني»[8].

الفرق بين الوصف والتأويل

لقد فرض المنهج الذي اختاره كل من ادونيس وكمال ابو ديب قيوداً الزمتهما بالتحري عن الدقة والموضوعية، وان يظهر عمل كل منهما بانه مثال للعمل المنهجي المنظم العلمي الموضوعي البعيد عن الذاتية، إلا أن هناك قوة ما كانت تخفف من هذه القيود، مما ادى بالجهد الوصفي الموضوعي إلى طريق محددة سلفاً، طريق تهيمن عليه رؤية الباحث الذاتية، وتتجلى هذه الرؤية لدى ادونيس في محاولة تفسير الصراع بين القديم والجديد في حقل الأدب، برده إلى اسباب شمولية لا تنبع من حقل الأدب نفسه، وإنما تنبع من حقول معرفية أخرى: الدين، السياسة، الاجتماع.

وكانت هذه الرؤية تمتاز بكونها رؤية مؤطرة بهدف ايديولوجي واضح يسعى إلى ايجاد فروق بنيوية بين فكرين: فكر ثابت ذي ابعاد دينية وفكر آخر ذي ابعاد دينية مخالفة، ولما كانت هاتان الفكرتان تتجليان لدى جماعات وتيارات دينية وسياسية واجتماعية، فإن رؤية ادونيس تنطلق من تكريس الفروق بين هاتين الفكرتين.

ونحن حين نصل إلى هذه الخلاصة نكتشف أن منهج كل من الناقدين كان منهجاً وصفياً استقرائياً، في حين ان رؤيتهما المحددة سلفاً والمنطلقة من ذاتهما كانت رؤية تحددها ايديولوجية ما، اي ان الباحثين كليهما انطلقا من دعوى نظرية تزعم الفصل بين المعرفة والأيديولوجيا، ولكن ايديولوجيتهما، كانت في حقيقة الأمر هي التي تحدد مسار بحثهما.

يتبين لنا، مما عرضناه ان دعوى الفصل بين المعرفة والأيديولوجيا ليست إلا فريةً، يزعمها الكثيرون، كما يتبين ان الأيديولوجيا تظل تحكم النتائج التي يتوصل إليها الكثيرون من الباحثين، ولما كان الأمر كذلك فمن حقنا ان نسأل، ونحن نريد البحث عن مخرج من الدوامة الكبيرة التي يعيش فيها الثقف العربي، طالما ان الأمر مفروغ منه: اي ايديولوجيا تلائم الثقف العربي وهو يسعى للخروج من الدوامة التي تجتاحه؟

اهي الأيديولوجيا المنطلقة من فكرة قتل الأب في بعض الدراسات النفسية؟ الأب هنا هو التراث. أم الأيديولوجيا التي ترى في التراث مكوناً اساسياً من مكونات الشخصية القومية؟

إن فكرة نبذ التراث تتساوق مع بعض عناصر الدوامة التي اشرنا إليها، فالعولمة التي تبتغي قيام مجتمع عالمي واحد تسود فيه قوانين واحدة، يهمها اقصاء عناصر التفرد والخصوصية في المجتمعات والثقافات المتباينة، وان نبذ التراث القومي يسهم في تذويب الثقافة العربية في ثقافة اعم واشمل هي ثقافة العولمة.

وان فكرة الشرق اوسطية، التي بدت في أول امرها فكرة اقتصادية صرفاً، يهمها أيضاً نبذ الأمة العربية لشروط تكونها التاريخية، من أجل ان يضمن الشرق اوسطيون مستقبلاً زاهراً لمجتمع تسود فيه علاقات جديدة، هي ليست العلاقات المنبثقة من فكرة القومية العربية، بل هي العلاقات المترتبة على الوضع الشرق الأوسطي الجديد الذي سيكون الكيان الصهيوني جزءاً منه.

كما ان فكرة صدام الحضارات التي روّج لها بعض مفكري الغرب ستجد لها وسيلة للتخلص من واحد من اطراف هذا الصدام، لأن نبذ التراث العربي، والدين الإسلامي جزء أساسي، سيمكن الغرب من تحييد الحضارة العربية الإسلامية حين تفقد هذه الحضارة واحداً من مرتكزاتها الرئيسية، التراث.

إن الأمة العربية التي ما تزال تعتز بشخصيتها القومية ينبغي لها ان لا تنساق إلى عناصر الدوامة التي تعصف بها من الخارج، فدعوات (التغرّب) او (الاستغراب) من أجل التخلص من مشاكلها الذاتية، لن تجعل العرب إلا نسخة ثانية من نسخة تركيا الكمالية التي تغربت قبلها، فلا هي التي ظلت محتفظة بشخصيتها القومية، ولا هي التي أصبحت جزءاً من الغرب، وعلى المثقفين العرب وحدهم تقع مسؤولية الكشف عن هذه الدوامة التي يعيشون فيها، كما تقع عليهم، قبل غيرهم، مسؤولية التبصير بخطورة الأفكار التي تريد سلخ هويتهم الثقافية عنهم.

الهوامش

(1) محمد عابد الجابري، نحن والتراث، ط 4، الدار البيضاء (1985).

(2)ينظر، ادونيس، الثابت والمتحول، بيروت، (1974)، ص(21) وما بعدها.

(3) المصدر نفسه ص(18).

(4) ادونيس، ديوان الشعر العربي، الكتاب الأول، المقدمة، صيدا - بيروت (1964) ص (10).

(5) كمال ابو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، بيروت (1979)، ص(221)

(6) المصدر نفسه.

(7) المصدر نفسه.

(8)المصدر نفسه.

الفكر العربي المعاصر والعولمة

ـ المفارقات والتجاوز ـ

د. بومدين بو زيد
الجزائـــــر

هل الفكر العربي المعاصر لا يزال يراوح مكانه بإعادته لطرح إشكاليات أصبحت في حكم المتجاوز؟ هل استطاع أن يطرق قضايا حيوية مستقبلية تمسّ الدولة والمواطن والطبيعة بشكل إبداعي خال من التقليد والصياغات التجميعية التلفيقية؟ لماذا هذه الإنتكاسات في مسيرة الفكر العربي المعاصر رغم المجهودات النظرية التي أبدعها مفكرون عرب منذ بداية ما يسمّى بـ «النهضة العربية»؟

اليوم تعقدت الأمور بعد اتساع الهوّة بيننا وبين العالم المتقدم وأصبح لزاماً علينا أن نختار بين الدخول مباشرة في مسيرة التقدم السريعة أو اختيار النسيان والبقاء في صف الشعوب التي إما أنها ستصبح في خبر كان أو تعيش على هامش عصر متحضر، وهذا ما لا نتمناه، فتراثنا الحضاري وممتلكاتنا المادية تجعلنا نبتعد عن ذلك، ولكن بشرط التحكم في تعقيدات التكنولوجيا وتوفير المناخ الديمقراطي واحترام حقوق الإنسان.

مملّ أن نبقى نلوك منذ سنوات عبارات يحفظها العام والخاص عن الأصالة والمعاصرة، ومسائل هل الدين يعادي العلم أم لا؟ وكيف نوظّف تراثنا؟ وماذا نحتاج وما لا نحتاج من هذا التراث؟ وهل المعتزلة عقلانيون أم لا؟ وهل الفلسفة الإسلامية فلسفة خالصة أم هي نقولات يونانية؟.. الخ من الأسئلة والقضايا التي أصبحت باردة وإجاباتها معروفة سلفاً.

سنحاول هنا أن نجيب عن سؤال أساسي: ما هي التحديات والخروقات التي تحدثها العولمة، هذه الإيديولوجية الجديدة؟ هل سنبدع خطاباً جديداً إبداعياً حول مسائل الهوية والتراث أم نعيد نفس الإجابات بصياغة جديدة؟ طبعاً المشهد الجزائري بكل إفرازاته وتطوراته حاضر في هذه المحاولة التي تنطلق أساساً من أن ما يجري في الجزائر من تجربة ديمقراطية مصحوبة بحالات العنف لا ينفصل عن التطور العام الذي يحدث في بلداننا العربية التي يبقى أمامها مجابهة التحدي الأساسي المتمثل في الاحتلال الإسرائيلي، وبناء مجتمعات مدنية محكومة بأنظمة ديمقراطية عصرية.

فكر الصدمة .. وفكر المشاركة

فكر يبدأ بالصدمة ويؤرّخ له بالحمالات الخارجية وبعد أكثر من قرن ونصف تقريباً ما يزال يطرح اشكالاته العتيقة وبشك فيه على أنه فعلاً فكر نهضة أم لا؟! هو فكر بقي محكوماً بردّ الفعل وباليات تعيقه عن الإبداع والدخول في المشاركة العالمية للعلم والمعرفة.

لقد تابعنا منذ أكثر من عشر سنوات ذلك الخوف الغربي من "صحوة الإسلام في الشرق" بعد الثورة الإيرانية وراح كثير من الكتاب والصحفيين الغربيين ينذرون الغرب من خطر هذه الصحوة فذهب العديد منا نحن في العالم العربي ضحية هذا الزخم الإعلامي مزهواً بنفسه يراوده حلم التغلب واسترداد الفردوس المفقود، وتبين بعد ذلك أن ما سمي في الإعلام الغربي بعودة الصحوة وحضارة الشرق ما هو في الحقيقة إلا تعبيرات وتجليات لمظاهر التخلف والاستبداد الذي يبدل أشكاله مرّة باسم الدولة الوطنية ومرّة باسم الدولة القومية وأخرى باسم الدولة الإسلامية، وبعض هذه الثورات تحولت إلى داعية لاستعمال العنف والقوة من أجل إسقاط من

أسمتهم به "الحكومة الوضعية".

مقولة "صدام الحضارات" رغم ما تحويه من أفكار للاستهلاك النقاشي الغربي الذي عودنا عليها كتاب "نص النهايات فهو يركز على مسألة مهمة وهي دور القيم الثقافية والأنثربولوجية والدينية في الصدام والصراع بين الشعوب والأمم، هذا الصراع في الحقيقة قدر ما يبرز على المستوى العرقي بين عرقيات مختلفة في المعسكر الشرقي سابقاً المزق فهو يظهر محلياً بصورة تختلف ولها آلياتها الخاصة، فهل نسميه "صداماً ثقافياً داخل حضارة واحدة"، أم هو "صراع سياسي يعتمد على مرجعيات ثقافية تشكل هوية أمة مثل ما هو الحال في الجزائر"؟

الاعتقاد في كون الصراع حول مسائل الهوية، اللغة والعرق بمواد دستورية وبمجالس عليا ينهي هذا الصراع - الذي قد يكون مبدعاً ومثرياً ثقافياً كما قد يكون مدمراً حين يلعب به سياسياً ومصلحياً - يجعلنا ندرك أن هؤلاء يتعاملون مع قضايا الهوية المعقدة كما يتعاملون مع القضايا الإدارية والحزبية والاقتصادية وهو تعامل غير مجدٍ ولن يحل الخلاف - المدمر، بل يعقد مسائل الصراع أكثر، ألسنا في حاجة إلى تفكير وخطاب جديدين حول هويتنا يحررنا من طروحات تقليدية ويكشف لنا عن الآليات المنهجية الواحدة التي تعيق العملية النقدية لفكرنا وتكشف مواطن الاتفاق مهما بدا من تعارض؟...

الوهم والاختلاف

إن التقسيم على أساس الاختلاف بين من هو قابض على السلطة، وبين المعارض إياها، أو بين الاتجاهات الفكرية والسياسية، ويلاحظ ميل الكتابات النقدية المتابعة للتفكير العربي المعاصر إلى تقسيم المساهمات الفكرية العربية على أساس الاختلاف المنهجي حسب تأثر كل مفكر بتيار غربي في العلوم الإنسانية واحياناً حسب الانتماء السياسي، إن هذا التقسيم والحشر للاجتهادات العربية ضمن تصنيفات احياناً تكون تعسفية تضرّ بالمساهمة المراد نقدها وتضرّ كذلك بالنقد الذي يبقى هو أيضاً خاضعاً للمقاسات التصنيفية.

هذا التقسيم قد يكون عائقاً معرفياً حقيقياً يحجب عنا منطق الأمور، الذي يكشفه يستطيع تفكيك بنيته ومعرفة تهافته ورد كثير من الوهم والبلبلة في المفاهيم إلى آليات واحدة. إذ العادة في تصنيف الاتجاهات النظرية والسياسية أو الفصل بين السلطة والمعارضة - وإن كان هذا التصنيف طبعاً ضرورياً - هذه العادة تتحول بحكم الاستعمال والبقاء إلى عائق منهجي ومعرفي ذهني يوهم المختلف أنه مختلف عن الآخر، في حين أن كلاهما محكوم بالمنطق نفسه ويخضع للآليات نفسها، ويشارك في التقدم الهائل التكنولوجي في ميدان المعلومة والاختبارات البيولوجية والفضائية.

هكذا تكون أمام قضايا جديدة وتحديات جديدة، وستستمر معنا بعض القضايا العالقة كمسألة اللغة وقراءة النص التراثي تتطلب مزيداً من التفكير والاجتهاد وأملنا كبير في التطورات الحاصلة في مجال العلم والاتصال بتجديد رؤيتنا لهذه القضايا وتفكيك بنيتها الداخلية والكشف عن آليات الإعاقة، كما أن هذه القضايا ستتحرر من هيمنة السياسي أو على الأقل لا يعد السياسي هو الذي يفكر فيها، بمعنى أن المضامين العلمية والحقيقية تعطى لها من طرف الباحثين والمفكرين وتتضح الحدود الفاصلة من الناحية المنهجية والمعرفية بين القول السياسي والقول العلمي في هذه المسائل.

كما أن التصنيفات التي تعودنا عليها في دراساتنا لفكرنا العربي الحديث والمعاصر الخاضعة لمنطق التأثر بالآخر أو الحكومة بالرؤية الإيديولوجية سيكون مصيرها التغيير وتصبح ثقافتنا لها مميزاتها الحضارية والبيئية، أي الخصوصية المبدعة وليست الخصوصية التقليدية التي تعتمد ما هو جاهز من الماضي وتطالب بالمحافظة عليه في وجه هذه العولمة، وأقصد بالخصوصية المبدعة هنا المشاركة في التطور

العلمي الحاصل مع تطوير فضاءاتنا منهجياً ورؤية وفي مقام مثل هذا لا يتسع المجال للقول أكثر ولكننا أردنا فقط الإشارة إلى الهزات التي تحدثها التطورات الجديدة الحاصلة إذا استطعنا استيعاب هذا التطور دون أن نبقى مرهونين بحالات "الصدمة" وعبارات "النكسة" و"الغزو الثقافي" و"الخصوصية الوهمية"، التي ظلت جاثمة على كتاباتنا منذ حملة نابليون التي يمر عليها هذا العام قرنان من الزمن، إن حملة اليوم الجديدة لا تأتينا من البحر ولا البر ولكنها تخترقنا في بيوتنا عبر الأقمار الصناعية، عبر شبكة المعلومات التي لا تعرف الممنوعات والحواجز والتحريمات ولن يستطيع منعها لا الأنظمة العربية بجيوشها ومخابراتها ولا كهنة التحريمات والخوف علينا من التأثر بالآخر.

ترى هل سنتجاوز مستقبلاً الأسئلة التي طرحها النهضويون العرب وتبعهم في ذلك المفكرون المعاصرون؟ إن القرن الجديد يطرح علينا أسئلة جديدة تتطلب إجابات جديدة، ولا ندري هل نستطيع فهم هذه الأسئلة والإجابة عليها؟ أم سنعيش قرناً آخر من خطابات مصدومة بالتقدم العالمي توفيقية تلفيقية في رؤيتها ومنهجيتها؟ وهل نستطيع بناء فكر يشارك في المعرفة العالمية ويبدع في قيمه ويجعلها إنسانية ويتجاوز فكر الصدمة والانتكاسة؟..

القيم الثقافية كمجال للنزاع مستقبلاً

"فلسفة النهايات" أو بتعبير جاك دريداً "نير القيامة"(١) غرم به الفلاسفة الأوربيون منذ الخمسينات، ولكنه اليوم تفكر فيه «المراكز الاستراتيجية الاستشرافية"، يعود من خلال "مفهوم التاريخ" "ونهاية الإيديولوجيات" وفي السنتين الأخيرتين من خلال كتابات "صموئيل هانتينغتون" - صدام الحضارات Flash of Civilization الذي هو في الأصل مقال أثار نقاشاً وردوداً في الأوساط الفكرية والمشتغلين بقضايا الاستشراف وتناوله بعض المفكرين والكتاب العرب بالمناقشة وإن كانت غير كافية، وقد برز ذلك في الدعوة التي وجهها «مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق "بلبنان"، نشرت بعض هذه المناقشات في كتاب صدر عن هذا المركز بالعنوان نفسه، ومنهم (أي من المثقفين العرب) من تحدث عنه عرضاً في ملتقيات عربية تناولت مسألة «العرب، الارتباط بالصدمة أو بالحملة أو بالآخر الغالب يكون من نتيجته الإنكفاء على الذات الذي تطور إلى خطاب العودة الى «نموذج المدينة» أو الدعوة إلى التحرر من الماضي واعتماد الغرب كنموذج أو البحث عن توفيقية لم تنته بعد ولم تكن مبدعة وظلّت مسيّجة بتأويلات للنص التراثي ولأنساق الفكر الغربي المعاصر. في الحالات المذكورة بقي فكرنا العربي مرتبطاً بما هو خارجي، أي ردّ الفعل ووضع الغالب والمغلوب سواء على المستوى العسكري أو التكنولوجي، هذا الوضع التاريخي أبقى هذا الفكر يبني مواقفه وتحليلاته وقراءاته لتراثه أو لواقعه على أساس معادلة الهزيمة الدائمة واستقبال فكر الآخر بالرفض أو القبول أو التلفيق والتوفيق، هكذا سيكون من الناحية السيكولوجية عاجزاً ومرهوناً بالردود الآنية الانفعالية، وقد لعب مؤرخو هذا التفكير دوراً في بقاء هذه المعادلة باعتمادهم في التاريخ له بالحملة النابليونية سنة ١٧٩٨م أوبتعبيرات الصدمة والانتكاسة لسنة ١٩٦٧، أي أن مراحل وتطورات الفكر العربي يؤثر عليها دائماً العامل الخارجي سواء تمثل في حملة عسكرية أو احتلال أو هزيمة، هذا سينعكس كذلك على جعل فكرنا يتسم بنرجسية للماضي، لحضارة زاهية ولانتصارات الفتوحات وكذا يجعل منه فكراً يؤمن بالقوّة وبتقديس الحرب، لاحظوا مثلاً، هل انتصرت عقلانية "محمد عبده" أم انتصر خطاب الجهاد، انتصر "رشيد رضا النصي على لطفي السيد" الليبرالي، هما تياران خرجا من تحت عباءة الشيخ، في آخر حياته كان بالتأكيد ستتغلب فتاوى الترخيص والسلم والتعايش السلمي بحكم فهمه للواقع واستيعابه لفقه الأصوليين ولمقاصد الشاطبي ولعقلانية "ابن رشد" وانتمائه للماسونية العالمية، ولكن الواقع جعل من "رشيد رضا" ينحو منحى آخر مثل ما